بلورة الهوية الذاتية (الفردية) والهوية الأثنية / القومية في مرحلة التعليم الأكاديمي

نادر شحادة
مرشد ومحاضر تربوي
كلية دافيد يلين للتربية

لقد تحدث العالم أريكسون (Erikson, 1968) عن ثماني مراحل لتطور الأنسان, تبدأ من جيل الصفر وحتى نهاية حياته مثل (الثقة مقابل عدم الثقة, الاستقلالية مقابل ألشعور بالشك والعيب, المبادرة مقابل الشعور بالذنب, الخ . . .) . وقد أدعى إريكسون أن تخطي أربع المراحل التطورية الأولى من حياة الأنسان هي بمثابة عملية تحضير للمرحلة الخامسة, وهي بلورة الهوية مقابل هوية مبلبلة . فالشعور بالثقة, الأستقلالية والمبادرة هي ركائز مهمة من أجل الوصول ألى هوية مبلورة . كما إدعى أريكسون أن هوية الفرد تتطور وتتبلور على مدار حياته . إلا أن الأساس لتطور وبلورة الهوية يحدث في فترة جيل المراهقة . لذلك فقد أولى كثير من الباحثين أهمية كبرى لجيل المراهقة في حياة الفرد . كما ويرتكز أريكسون على فرضية أخرى مهمة , وهي وجود " أزمة هوية " خلال مرحلة المراهقة مركزها هو موضوع الهوية الفردية والشخصية للفرد . ففي جيل المراهقة يبدأ المراهقون بالفهم على أنهم ليسوا كما كانوا في مرحلة الطفولة . فالمراهق لم يعد طفلاً من حيث المظهر الخارجي ومن حيث التطورات الجسدية التي تطرأ عليه, أهتماماته وآرائه الشخصية . هذا الفهم سيؤدي حتماً في نهاية جيل المراهقة الى تغيير مرتقب ومرغوب فيه لا يبقيهم مع شعور بلبلة في هويتهم (White, 1980 ؛ Erikson , 1980).

في هذه المقالة سأتناول موضوعين مركزيين في حياة كل فرد, أحدهما مرتبط بالآخر . ألموضوع الأول الذي سأتناوله هو تطور الهوية الذاتية (الفردية) لدى كل فرد حسب النظرية التطورية للعالم أريك أريكسون, والموضوع الثاني هو تطور الهوية الأثنية/ القومية لدى الأفراد من الأقليات القومية . وسأتناول تطور الهوية الذاتية والهوية القومية في مرحلة التعليم الأكاديمي, أي مرحلة التعليم في الجامعات والكليات .

لقد عرف أريكسون (Erikson, 1968) الهوية على أنها تجمع ودمج لتجارب الطفولة التي مر بها الفرد , والتي تساعد في تنظيم شخصيته المتطورة . هذا التجمع والدمج هو عبارة عن التجارب المتراكمة لقدرة " الأنا " (ego) على المزج بين كافة التجارب , بين كافة القدرات التي تطورت مع الفرد , بين كافة القدرات المولودة مع الفرد, وبين كافة الفرص المقترحة للفرد من قبل المجتمع . وبذلك, فإن عملية بلورة الهوية تتحدد حسب تاريخ الفرد, حسب الظروف البيئية , التغييرات في تاريخ الفرد والضغوطات والصراعات الإجتماعية التي يواجهها . وبذلك , فان عملية بلورة الهوية الذاتية للفرد تتطلب الإلتزام بمهنة مستقبلية, الألتزام بقيم أيديلوجية ونمط حياة , وبنفس الدرجة تتطلب بلورة تعريف ذاتي (فردي) واضح (צוריאל, 1990 ؛ Erikson, 1968).

كما ذكرت في بداية المقال, فأن عملية بلورة الهوية الذاتية تحدث في جيل المراهقة, أذ تعتبر هذه المرحلة من حياة كل أنسان كمرحلة هدفها المركزي هو الوصول بالفرد ألى هوية مبلورة وواضحة (Erikson, 1968 ; Marcia, 1980,1966) . وقد وصف باحثون عديدون فترة جيل المراهقة على أنها فترة إنتقالية من مرحلة الطفولة إلى مرحلة البلوغ . هذه الفترة تحوي بداخلها تغييرات مختلفة تطرأ على كل فرد من حيث اللإلتزامات , التوقعات المتعارف عليها , والفرص المختلفة التي تعرض على الفرد (Nurmi, 1995) . كما يرتبط التطور في جيل المراهقة بموضوع مهم ومركزي , هو البحث والتحضير للمستقبل، حيث يواجه المراهقون مهام وتوقعات من البيئة، العائلة، مجموعة الجيل, والمعلمين , وهذه التوقعات تزيد من أهمية " التحضير " للمستقبل . أضف الى ذلك بأن القرارات المستقبلية للمراهقين كالتي تُعنى بالمهنة, نمط الحياة والعائلة المستقبلية, فإنها تلعب دوراً مهماً وحتمياً في حياتهم كأفراد بالغين من حيث التقدم أو عدم التقدم في الفرص المستقبلية المختلفة التي ستعرض لهم . السبب الثالث في أهمية هذه الفترة ينطوي في الصورة أو الشكل الذين يرى بهما المراهق مستقبله واللذين يلعبان دوراً مهماً في عملية بلورة هويته .

يدعي اريكسون (Erikson, 1968) أنه في مرحلة جيل المراهقة تحدث " أزمة هوية " . النتيجة النهائية لأزمة الهوية تتجلى في قطبين :

* القطب الأول تنتج هوية غير مبلورة (مبلبلة) .
* القطب الثاني تنتج هوية مبلورة .

النتيجة النهائية لأزمة الهوية تعتمد أيضاً على التغييرات النفسية ـ الإجتماعية التي تحدث في جيل المراهقة . فقد رأى أريكسون بأن المهمة المركزية والمهمة لجيل المراهقة هي " دفع المراهق للإختيار من بين إمكانيات متعددة " , وهذا الدفع والإختيار من بين إمكانيات مختلفة يؤدي بالمراهقين الى بلورة هوية ذاتية ترافقه طوال حياته . وقد أكد أريسكون على أن مهمة الدفع والإختيار ملقاة على عاتق المراهق والمجتمع , وتتطلب من المجتمع أن يوفر للفرد إمكانيات وفرص مختلفة يجربها المراهق واحدة تلوى الأخرى, ليختار من بينها ما يلائمه . وقد أطلق أريكسون على فترة التجربة هذه إسم " Moratorium " وحدد أن الهوية الفردية الحقيقية لا تتبلور بدون المرور في هذه المرحلة , والتي هي شرط أساسي للوصول إلى هوية ذاتية مبلورة .

وبالإ ستناد الى نظرية أريكسون لبلورة الهوية الذاتية (الفردية), فقد طور الباحث جيمس مارسيا (Marcia, 1980) أربع مراحل للهوية الذاتية . يشدد مارسيا على أنه كلما تقدم الفرد في هذه المراحل يكون واعياً لخصوصيته الذاتية , للتشابه القائم بينه وبين غيره , وللجوانب القوية والضعيفة في شخصيته والتي تقوده في حياته . وكلما كان الفرد في مرحلة منخفضة من هذه المراحل, فتكون لديه بلبلة في هويته وفي خاصيته وإختلافه عن الآخرين, وبذلك يكون محتاجاً دائماً لمصادر خارجية من أجل تقييم ذاته .

حسب مارسيا (Marcia,1966,1980) هنالك شرطان أساسيان للوصول الى هوية مبلورة, هما " بحث " (Exploration) و " إلتزام " (Commitment) المقصود بالبحث هي الفترة الزمنية في

جيل المراهقة التي يكون فيها المراهق فعالاً في الإختيار من بين إمكانيات مختلفة في المواضيع الآتية : المهنة, والعقائد والأيديولوجيات المختلفة . أما الإلتزام فيتطرق ألى مدى بذل الجهد الشخصي الذي يبديه الفرد في عمله أو عقائده . وجود أو عدم وجود بحث وألتزام ينتج أربعة مراحل للهوية التي طورها مارسيا, وهي :

1- **هوية مبلبلة** : وتتميز بعدم وجود إلتزام شخصي لمهنة ,أو عقيدة دينية أو أيديولوجية, كما أن الفرد لم يمر بعد في مرحلة " أزمة الهوية " بما يخص هذه المواضيع .

2- **هوية مكتسبة** : في هذه المرحلة يبدي الفرد ألتزاماً لأهداف, ولقيم، ولمهنة ولأيديولوجية شخصية . ألا أن الفرد لم يمر في مرحلة أزمة الهوية ولم يختر عقائده ومبادؤه وأيديولوجيته وقيمه بعد أن جربها, ألا أنه على ما يبدو أكتسبها من المجتمع أو البيت دون أن يفحص أذا كانت ملائمة له أم لا .

3- **Moratorium** تتميز هذه الفترة بأنها فترة يجرب بها الفرد أدواراً مختلفة , يفحص أمكانيات مختلفة وعقائد وقيماً وأيديولوجيات بدون أن يلتزم بأي منها . هذه المرحلة هي " أزمة الهوية. "

4- **هوية مبلورة** : بعد أن مر الفرد بمرحلة أزمة الهوية (مرحلة ألـ- Moratorium) .. وبدأ في اختيار جدي لمجموعة قيم وعقائد وأيديولوجية ملائمة له من بين أمكانيات عديدة, واختار مهنة مستقبلية ملائمة له بعد فحص جدي أجراه, فأن الفرد قد وصل الى هوية ذاتية مبلورة .

يؤكد أريكسون ومارسيا على أن عملية بلورة الهوية الحقيقية ممكن أن تتعدى مرحلة جيل المراهقة, وذلك يحدث عندما لا يوفر المجتمع للفرد عقائد وقيم وأيديولوجيات مختلفة ومتعددة . وبذلك, فأن مرحلة التعليم الأكاديمي (جيل 18-21 سنة) تعتبر أستمراراً لجيل المراهقة المتأخرة .

لقد أولى أريكسون ومارسيا وباحثون عديدون أهمية كبرى لمرحلة التعليم الأكاديمي في توفير عقائد وقيم وأيديولوجيات مختلفة للفرد . فقد إدعوا أن مرحلة التعليم الأكاديمي هي أستمرار لجيل المراهقة من حيث عملية بلورة الهوية الذاتية (الفردية) - في مضمون الهوية وفي عملية بلورتها . وقد إدعى مارسيا (Marcia, 1966,1980) أن فترة المراهقة المتأخرة (جيل 18 سنة حتى جيل 21 سنة) هي فترة مهمة في عملية بلورة الهوية . كما إدعى ووترمان (Waterman,1982) أن الانجازات المهمة جداً في عملية بلورة الهوية تحدث في مرحلة التعليم الأكاديمي في الجامعة أو الكلية . وبالرغم من أهمية مرحلة التعليم الأكاديمي في عملية بلورة الهوية الفردية, فأن الأبحاث التي أجريت في هذا المجال في مرحلة التعليم الأكاديمي والتي تتعلق ببلورة الهوية تعتبر قليلة جداً مقارنة مع أهمية الموضوع .

الأبحاث التي أجريت على طلاب الجامعات والكليات, أجريت معظمها على طلاب أمريكيين, والباحثون الذين أجروا هذه الأبحاث هم : Waterman (1974), Waterman, Geary, & Waterman (1982) ; White (1980) ; Adams & Bennion (1986) ; Adams & Fitch (1982) ; Waterman & Waterman (1971).

النتائج النهائية التي توصل اليها الباحثون في أبحاثهم أشارت ألى أهمية مرحلة التعليم الأكاديمي في الكليات والجامعات في عملية بلورة الهوية الذاتية (الفردية) . لقد أجريت هذه الأبحاث على الطلاب

في بداية السنة الأولى في تعليمهم , حيث فحصت مرحلة الهوية التي تواجد بها الطلاب في بداية السنة الأولى وقورنت هذه النتائج مع نتائج أخرى أستخلصت في مرحلة لاحقة من البحث, أي في السنة الثالثة للتعليم الأكاديمي لهؤلاء الطلاب . ولقد وجدت الأبحاث ارتفاعاً ملحوظاً في مراحل بلورة الهوية, أي من مراحل هوية مبلبلة ومكتسبة ألى مراحل متقدمة أكثر وهي Moratorium وهوية مبلورة

ففي أحد الأبحاث ألتي أجراها Waterman, Geary & Waterman (1974) لفحص التغييرات التي تطرأ على الهوية من السنة الأولى حتى السنة الثالثة للتعليم لدى طلاب في كليات في الولايات المتحدة, وجد الباحثون إرتفاعاً ملحوظاً في عدد الطلاب في مرحلة الهوية المبلورة في السنة الثالثة للتعليم مقارنةً مع السنة الأولى . ففي السنة الأولى نسبة الطلاب الذين وصلوا ألى هوية مبلورة كانت 2٪, بينما في السنة الثالثة وصلت نسبتهم الى 19٪ . كما وجدوا أنه بعد سنتين ونصف من التعليم الأكاديمي, توصل غالبية الطلاب الى حل لأزمة الهوية التي راودتهم . وبالأجمال فقد وجد الباحثون تقدماً ملحوظاً في مراحل تطور الهوية لدّى الطلاب في السنة الثالثة للتعليم, من هوية مبلبلة وهوية مكتسبة الى مراحل Moratorium وهوية مبلورة . هذه النتائج كما ذكرت سابقاً تشير الى أهمية مرحلة التعليم الأكاديمي في الجامعات والكليات في عملية بلورة الهوية .

الأبحاث التي أُجريت في موضوع تطور الهوية تركزتْ في غالبيتها في عدد من المواضيع, إعتقد الباحثون أنها مهمة في عملية بلورة الهوية . هذه المواضيع التي بحثت هي المبادىء والعقائد, الهوية المهنية, الهوية الدينية والهوية الجنسية . ألا أن هذه الأبحاث بغالبيتها العظمى أجريت على طلاب أمريكيين من مجموعة الأغلبية (الطلاب البيض) ولم تجر على الطلاب من أقليات قومية (مثل الطلاب السود) . وبذلك, فأن هذه الأبحاث لم تتطرق الى موضوع تطور الهوية الفردية لدى الأقليات القومية . ألاَ أن الأخصائيين في علم الأجتماع إدعوا أن موضوع "القومية/ الأثنية" هو موضوعٌ مهم لدى الأقليات القومية, وقد يلعب دوراً هاماً في عملية تطور الهوية الذاتية (الفردية) لدى الأفراد من الأقليات القومية .

Phinney (1990) تُعرّف الهوية الأثنية/ القومية على أنها مبنى مُركب يحوي بداخله التزاماً وشعوراً بالأنتماء للمجموعة القومية, تقييماً إيجابياً للمجموعة, اهتماماً بالمجموعة, اكتساب معلومات ومعرفة عن المجموعة, وتفاعلاً مع المجموعة من حيث الفعاليات والتقاليد الخاصة بها . ويعتقد الباحثون أن الهوية القومية هي متغيرة كما تتغير الهوية الفردية من حيث مراحل بلورتها.

لقد إدعت هيلمس (Helms, 1990) أن هنالك أربع مراحل في تطور الهوية الأثنية/ القومية لدى مجموعة الأقلية, وهي مراحل تطورية, في نهايتها يصبح الفرد عنصراً من الأقلية, وتصبح الأمور التي تميز الأقلية نمط تفكير ونمط حياة . المراحل الأربع هي :

1. المرحلة الأولى - : Pre-encounter في هذه المرحلة يوجد تمجيد لمجموعة الأغلبية وتقليل من قيمة عالم الأقلية . هنالك تبنٍ لمعايير وقيم مجموعة الغالبية, ومجموعة الغالبية تصبح هدفاً يصبو اليه كل فرد .
2. المرحلة الثانية- : Encounter الوصول الى هذه المرحلة يحدث بواسطة وبمساعدة لقاء مهم بين

التمييز العنصري الموجه ضد الأقلية, بشكل شخصي ومباشر أو بشكل غير مباشر . في هذه المرحلة يتوصل الفرد الى الفهم أنه لا يمكن التّنكر للواقع ولا يمكنه أن يكوّن جزءاً من مجموعة الأغلبية . وبذلك, فأن هذه المرحلة تعتبرُ ولادة من جديد, تحوي بداخلها بلبلة وخوفاً بدرجة كبيرة وعملية إنتقال للبحث عن هوية جديدة . في هذه المرحلة الفرد ليس جزءاً من الأقلية حتى الآن, ولكنه قرر أن يكون جزءاً منها .

3. المرحلة الثالثة- :Immersion-Emersion في هذه المرحلة هنالك إنتقال من الطرف الأول المتطرف الى الطرف الآخر المتطرف, أي من تنكر لهوية الأقلية التي هو جزء منها الى تبنّ تام لهوية الأقلية . في هذه المرحلة تأخذ هوية الأقلية حيزاً كبيراً على حساب الهوية الفردية, ويحدّث تمجيد لمجموعة الأقلية وتقليل من قيمة كل شيء ينتمي الى الأغلبية . هذه المرحلة تتميز بالغضب الذاتي على الفرد نفسه حيث يرى أنه كان ساذجاً وكان جزءاً من جهاز القمع والتمييز العنصري ضد الأقلية . كما تتميز هذه المرحلة بالغضب على الأفراد من مجموعة الأقلية الذين لم يعوا ذلك حتى الأن .

4. المرحلة الرابعة - :Internalization في هذه المرحلة تحدث عملية تذويت, بمساعدتها يصل الفرد الى توازن وتذويت إيجابي لهوية الأقلية . هذه الهوية تكون ثابتة وواضحة, وبأستطاعة الفرد في هذه المرحلة مواجهة العالم بطريقة أفضل, بكونه واثقاً من نفسه وبشعوره بقوة هويته القومية . هنالك مقاومة للتمييز العنصري, وهنالك إمكانية للتعاون مع أفراد من مجموعة الأغلبية الذين ينادون ضد العنصرية . هنالك أيضاً إمكانية للتطرق الى ثقافة الأغلبية بنظرة ناقدة, ولكن ليس بسلبية جارفة .

وكما هو الحال في عملية بلورة الهوية الفردية, فأن مرحلة التعليم الأكاديمي تعتبر مهمة جداً في بلورة الهوية القومية لدى الطلاب من مجموعة الأقلية, بكون الهوية القومية هي جزءٌ لا يتجزأ من الهوية الذاتية . ففي هذه المرحلة ينتقل الطلاب من مجموعة الأقلية من بيئة يكونون فيها جزءاً من غالبية (الحارة أو القرية التي يعيشون فيها, وهم غالباً ما يسكنون في حارة أو قرية من نفس المجموعة القومية) الى بيئة يكونون فيها جزءً من أقلية داخل أقلية (الجامعة أو الكلية), وبذلك يزداد شعورهم بكونهم أقلية قومية . والأحتكاك بالطلاب من مجموعة الأغلبية يزيد من شعورهم بالتمييز العنصري مما يؤدي بهم الى الدخول الى المرحلة الثانية من تطور الهوية الأثنية/ القومية . ومع تقدمهم في مراحل التعليم الأكاديمي, كما هو الحال في تطور الهوية الفردية, فأن الطلاب من مجموعة الأقلية يتقدمون في مراحل تطور الهوية الأثنية/ القومية الى المرحلة الثالثة والمرحلة الرابعة, كما هو الحال تتطور الهوية الفردية .

وبذلك, فأن مرحلة التعليم الأكاديمي مهمة لكافة الأفراد وهي مهمة جداً لطلاب الجامعات والكليات الذين يشكلون جزءاً من أقلية قومية داخل دولة, مثل الطلاب العرب في أسرائيل . الأهمية الكبرى للطلاب من الأقليات القومية, مثل الطلاب العرب في أسرائيل , تنبع من المنطلق التالي : في فترة جيل المراهقة المبكرة (حتى جيل 18 سنة) (يعيش الطلاب العرب في أسرائيل في غالبيتهم في قرى ومدن عربية, وبالرغم من كونهم أقلية في دولة أسرائيل , فأن وجودهم في قرية أو مدينة عربية يعطيهم

الشعور بأنهم جزء من الغالبية التي تشكل القرية أو المدينة العربية, مع شعورهم بأنهم أقلية داخل دولة أسرائيل . وعندما ينتقلون الى مرحلة الدراسة الأكاديمية, فانهم يعيشون بغالبيتهم خارج القرية أو المدينة العربية, وبذلك يقوى الشعور بأنهم أقلية ويضعف الشعور بأنهم جزء من الغالبية العربية في القرية أو المدينة, لأن الغالبية العظمى للطلاب في الجامعة أو الكلية هم يهود. تقوية الشعور بأنهم أقلية يدخل الطلاب في أزمة هوية قوية, واذا وجد الدعم الكافي لهؤلاء الطلاب من قبل بعضهم البعض ومن قبل النقابات الطلابية العربية, فأن أزمة الهوية تؤدي الى بلورة الهوية القومية لدى هؤلاء الطلاب . وفي هذه المرحلة فان بلورة الهوية القومية التي هي جزء مركزي ومهم من الهوية الذاتية (الفردية), تتطور ويصل الطلاب الى بلورة هويتهم بشكل أسرع مما كانوا قد يصلون اليه في أماكن اخرى . ومن هنا فأن مرحلة التعليم الاكاديمي في الجامعة أو الكلية تلعب دوراً مضاعفاً لدى الطلاب من الأقليات القومية .

وفي النهاية أود أن أشير الى نقطة أخرى وهي أن انعدام أطار داعم (مثل نقابة الطلاب) للطلاب من أصل أقليات قومية قد يؤدي الى هوية مبلبلة او الى تقمص هوية الغالبية في الدولة أو الكلية أو الجامعة . وفي كلتا الحالتين فان الهوية الذاتية و القومية لا تكون حقيقية , و قد تؤدي الى صراعات نفسية داخلية بين الفرد و بين نفسه . وجود أطار داعم مهم جداً في عملية بلورة الهوية القومية, لأنه يشكل أطاراً يستطيع الطالب من خلاله النضال ضد التمييز العنصري الموجه ضده, ويعطي الطالب شعوراً داعماً على أنه ليس وحده بل هنالك أفراد آخرون من مجموعته القومية يناضلون ضد التمييز وفي مرحلة شبيهة من تطور هويتهم الفردية . هذا الأطار يشكل أطاراً رسمياً للطالب يستطيع من خلاله التعبير عن كل ما يجول داخله من أفكار ومشاعر قومية, يستصعب تعبيرها في كل زمان ومكان, كما أنه يلقى في هذا الأطار دعماً, تفهما, ومشاركة لأفكاره, مبادئه ومشاعره, مما يؤدي به ألى التقدم في مراحل الهوية القومية/ الأثنية وفي النهاية ألى بلورة هويته القومية بالشكل الملائم.

المراجع

Adams , G.R, &Bennion , L.D.(1986).A Revision of extended version of the objective measure of ego identity status : An identity instrument for use with late Adolescent s .**Journal of Adolescent Research , 1**(2), 183-196.

Adams J. R., & Fitch, S.A. (1982). Ego Stage and Identity Status Development: A Cross Sequential Analysis. **Journal of Personality and Social Psychology, 43**(3) ,574-583.-

Erikson, E.H. (1968). **Identity: Youth and Crisis .** W.W.Norton & Company Inc.,New York.

Helms, J. (1990). **Black & White Racial Identity: Theory Research and Practice.** Westport, Connecticut: Greenwood Press.

Marcia, J.E (1966). Determination and Construct Validitation of Ego Identity Status . **Journal of Personality and Social Psychology, 3,** 551-558.

Marcia , J.E. (1980). Some Directions for the Investigation of Ego Development in Early Adolescence . **Journal of Early Adolescence, 3,** 15-223.

Phinney, J.S. (1990). Ethnic Identity in Adolescents and Adults: A Review of Research. **Psychological Bulletin, 108,** 499-514.

Waterman, A.S. (1982). Identity Development from Adolescence to Adulthood: and Extension of Theory and Review of Research **.Developmental Psychology , 18**(3), 341-358.

Waterman, A.S., Geary, P.S. & Waterman, C.K. (1974). Longitudinal Study of Changes in Ego Identity Status from Freshman to the senior year at collage **.Developmental psychology , 10** (3), 387-393.

Waterman,A.S.,& Waterman , C.K.(1971). Longitudinal Study of Changes in Ego Identity Status During the Freshman Year at Collage **.Developmental Psychology , 5,**167-173.

White, M.K. (1980).Problems and Characteristics of Collage Students **.Adolescence, XV**(57), 23-41.

צוריאל, ד. (1990). "זהות האני" לעומת "פזירות הזהות" בגיל ההתבגרות: היבטים התפתחותיים והשלכות. **מגמות,** כ ה (4), עמי 484-509